الفصل الثانى
الضحك فى النصوص المقدسة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثانى
الضحك فى النصوص المقدسة

لابد لنا أن نسلم بأن الله جل وتعالى هو العالم الوحيد بذلك الكائن الغريب (الإنسان) فهو الذي خلقه وكما شاء ركبه وسواه وقدر له سيره وقدر له خطاه.. ومن هنا فإنه من الأجدر عند دراسة أي ظاهرة تتعلق بالإنسان فلابد من الإطلال على تلك "الكتالوجات" السماوية التي تفسر كل كبيرة وصغيرة في هذا المخلوق.

كما أن الكتب السماوية هي أولى المراجع بتلمس تلك المبالغة البليغة بين "التعظيم" ممثلا في المقدسات وبين "صور الاستخفاف" ممثلة في المثيرات المضحكة في النفس البشرية:

الضحك فى القرآن الكريم

يحق لنا أن نعتبر القرآن من المراجع المهمة للباحثين في مجال علم النفس حيث درج القرآن على أن يسوق العبرة بالقصص والأمثال ورواية الأخبار عن الضحك والضاحكين.. حيث تبرز مسببات الضحك وماهيته، قال الله جل وتعالى "وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى* وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا" (النجم: 43 :44).

"وهنا وضع الله سبحانه وتعالى الضحك بحذاء الموت، ووضع البكاء بحذاء الحياة، والله لا يضيف إلى نفسه القبيح، ولا يمن على خلقه بالنقص، فكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما، ومن مصلحة الطباع كبيرا، وهو في أصل الطباع، وفي أساس التركيب". هذه الكلمات عبر بها الجاحظ عن فهمه للآيتين الكريمتين، وهو يكشف عن الإعجاز القرآني في الضحك والبكاء.

وقد وردت مادة الضحك في القرآن الكريم عشر مرات على النحو التالي:

1. " فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ" (التوبة: 82).
2. "وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ" (هود: 71)
3. " وَكُنْتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ" (المؤمنون: 110)
4. " فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا" (النمل: 19).
5. " فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ" (الزخرف: 47)

6. " وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى" (النجم: 43)
7. " أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ* وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ" (النجم: 59 :60)
8. " وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ"(عبس: 38-39)
9. " إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ" (المطففين: 29)
10. " فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُون" (المطففين: 34)

وجاء الضحك فى القرآن الكريم بدلالات مختلفة مثل:

- ضحك السخرية والاستهزاء.
- ضحك النصر والفوز والفلاح.
- ضحك الدهشة والتعجب.
- ضحك النعمة، والامتنان.
- ضحك المفاجأة.
- ضحك السعادة والاستبشار.

وأرجو أن يعينني الله على محاولة سرد لتلك المعاني فى الآيات المذكورة:

ففي سورة التوبة يقول عز من قائل:

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (82) فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ (83) (التوبة).

ويذكر الله جل وتعالى الضحك هنا كضحك للسخرية والاستهزاء، وتمثل في ضحك المنافقين الذين ضنوا بأموالهم وأنفسهم عن الجهاد فى سبيل الله، بل وحاولوا إثناء غيرهم عن النفور للجهاد، وهو ضحك باعثه الاستكبار والخداع ومن هنا تكون عاقبته وخيمة كما هددهم الحق سبحانه وتعالى.

وفى سورة هود:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَمًا قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (69) فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى

قَوْمِ لُوطٍ (70) وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (71) قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (72) قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (73) (هود)

وهنا نجد ضحك التعجب، فى ضحك امرأة إبراهيم عليه السلام،

وتحكي هذه الآية قصة الملائكة يأتون إبراهيم مبشرين، فيقدم لهم الطعام فلا يأكلون فينتابه خوف فيطمئنوه ثم يبشرون زوجه بإسحق ومن وراء اسحق يعقوب، وهي عجوز وبعلها قد كبر وشاخ وهل هناك مدعاة للضحك أكثر من ذلك:

- ضحك للاطمئنان بعد الخوف حيث انتقال مفاجئ من انفعال لآخر.
- ضحك للبشرى التي تثير المفاجأة والعجب.
- ضحك التعجب.

ولعل كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين النفسانيين في تفسيراتهم – تعارضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع – فتأتي بالضحك حيث يأتي الضحك مطردا في مواضعه المختلفة، من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف، ومعرفة بعد نكران، وبشارة بما ليس في الحسبان، من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الأمل في الذرية زمنا طويلا، تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعي الحزن والعذاب والغيرة، ولا تغني هنا كلمة "سرت أو استبشرت أو فرحت" في مكان كلمة "ضحكت". فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التي تشابكت في قراره النفس فأصبحت حالات متناقضات (عباس محمود العقاد، 1956) .

ونأتي إلى سورة المؤمنين:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (109) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ (110) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (111) (المؤمنون)

توضح هذه الآيات خطاب الله عز وجل وتعالى لأهل النار من الكفار بان استغراقهم في الاستهزاء من المؤمنين المستغفرين المسترخين واتخاذهم لهم مادة للسخرية شغلهم حتى عن ذكر الله – والتفكر فيه جل وتعالى استهزاءا للضحك. ولعل في ذلك أبلغ تصوير عن

مغبة تحويل تلك الظاهرة الإنسانية إلى منحنى غير صحي من الناحية الاجتماعية والناحية الشخصية أيضا.

ويقول جل وتعالى فى سورة النمل:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (17) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (18) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (19) (النمل)

والضحك هنا ضحك النعمة، والرضا، والامتنان:

فهنا تبدو عوامل الضحك ممثلة في النقائض الدقيقة وما يترتب عليها:

- تناقض ضخامة جيش سليمان وملكة وبين ضآلة النملة.
- تعجب سليمان من ظن النملة انه لا يدري بموقعها ولا يشعر بها.
- رضا سليمان بما أفاضه الله عليه وشكره وحمده وخشوعه له.

وكل تلك تداعيات تأتي من مصدر غير متوقع: نملة ضئيلة تخاف على واديها وعلى جنسها من أن يحطمهم سليمان العظيم دون أن يشعر بهم وقد ذهبت بعض الآراء إلي أن النملة لم تكن تقصد التحطيم الجسدي وتهشيم عظام النمل، لكنها كانت تقصد التحطيم النفسي والإيماني من هول عظمة سليمان وجنوده.

ثم نأتي لسورة الزخرف وقوله جل وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (46) فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ (47) (الزخرف)

وفي هذه الآية قد يعزى سبب الضحك إلى عدد من المبررات:

- ضحك المفاجأة، فبدلا من أن يجئ موسى ليستغفر فرعون يجئ إليه برسالة تهدم إلوهيته.
- ضحك مفاجأة أخرى فآيات الله جل وتعالى – والتي جاء بها موسى لفرعون وملأه – جاءت على النقيض من معتقداتهم وعباداتهم.

والتناقض في الحالتين يولد المفاجأة التي تدفع على الضحك.

- وقد يكون الضحك هنا أيضا ضحك للسخرية مما جاء به موسى من آيات تناقض معتقدات رسخت في نفوس القوم وأصبحت بمثابة المنطق الذي يشكل حياتهم وما جاء خلافاً لمنطقيتهم يدفعهم للسخرية منه كما يداهمهم بالمفاجأة وكلتا الحالتين من المسببات الرئيسية للضحك.

وفى سورة النجم يجئ قوله جل وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى (45) (النجم)

في هذه الآيات تأتي البلاغة القرآنية لتؤكد أن الضحك هو نقيض البكاء.... مثلما الحياة نقيض الموت. ليس هذا فقط ولتعطي دلالة أهمية الضحك – كنعمة كبرى منحها الخالق لعباده ليكون من وظائف تلك الظاهرة تخفيف وطأة البكاء عنهم، أي أن القرآن جاء هنا يؤكد وظيفة الضحك في التطهير (التطهير: ترجمة للكلمة الإغريقية Catharsis وتعني عند أرسطو تطهير العواطف بالفن) (إيريك بنتلي، 1960).

وفى سورة النجم أيضا:

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62) (النجم)

يجئ الضحك هنا من التناقض بين ما هو متوقع وما هو حادث ففي الوقت الذي يفترض فيه أن "نذير الآزفة" التي "ليس لها من دون الله كاشفة" سوف تثير أحاسيس الرهبة والخوف والبكاء لدى القوم إذ بهم يتعجبون لحديثها ويضحكون، فهو حقا موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك فإما أن يحس السامع هول ما ينتظره فيبكي وإما أن ينكره ويستغرب فيضحك تعجبا من هذا الكلام. فهو ضحك من بلاء لا يحسه السامع ولا يستطيع تخيله بل ويستبعده ويعتبره ضربا من المحال اللا معقول ويوقن أنه ناج منه، ولقد تكرر شبيه لهذا المعنى في سورة التوبة سبق أن عرضنا له.

وفى سورة عبس:

بسم الله الرحمن الرحيم

وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42) (عبس)

ويبدو هنا ضحك الاستبشار فى ضحك المؤمنين ذوي الوجوه المسفرة الضاحكة المستبشرة استبشارا ورضا بنعيم الله وجزيل عطائه

فهنا نطالع ضحك السرور والرضي حيث يستمع المؤمنون بالجنة فتكون وجوههم المضيئة ضاحكة في استبشار ولعل هذه الصورة توحي بسمو تلك الظاهرة ومدى ما تمثله من قيمة إذا ما جاءت في صورة إنسانية مهذبة خاصة إذا ما قورنت بما تحدثت به الآيات عن وجوه الكفار والفجرة وما يعلوها من كد وما يلحقها من غبار.

ويجئ القرآن الكريم مرة أخرى بالضحك من منطلق السخرية والاستهزاء باستخدام التغامز ونكات المجالس" بين المستهزئين من الكفار وأهلهم الذين ينقلبون إليهم سخرية واستهزاءا بالمؤمنين وذلك في سورة المطففين:

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (29) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (30) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ (31) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاء لَضَالُّونَ (32) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (33) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) (المطففين)

ويجئ في الآيات ضحك آخر هو ضحك المؤمنين من الكفار الذين كانوا يضحكون فإذا بهم وقد انقلب عليهم الأمر فصاروا أضحوكة للضاحكين.

ففي الآية الأولى ضحك سخرية واستهزاء إجرامي من الكفار، تمثل في ضحكهم واستهزائهم وتغامزهم، وتفكههم فى منتدياتهم مع أهلهم بما يفعلون مع المؤمنين، وهو ضحك باعثه الجهل والاستكبار والعناد، ضحك ينساق فيه المرء دون تفكر أو إعمال عقل كما كان يدعوهم القرآن، و"لكن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا" فيأتي فى بقية الآيات ضحك النصر والفوز والفلاح حين يجد المؤمن ما وعده الله حقًّا وصدقاً سواء كان فى الدنيا أو الآخرة، وهو ضحك لا يستشعره غير من أعمل عقله وأتعب نفسه فى استقصاء الحق والمثابرة والصبر عليه.

وقد وردت مادة "الفكاهة" وهى الطريف من الكلام والذي يبعث على السرور والسعادة في القرآن الكريم خمس مرات على النحو التالي:

- يس الآيـة (55)
- الدخان الآية (27)
- الطور الآيـة (18)
- الواقعة الآيـة (65)
- المطففين الآية (31)

ففي سورة "يس":

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ (56) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (57) يس

وكلمة فاكهون: اى متلذذون – مشتق من الفكاهة – يقال فكه.. يفكه.. كان طيب النفس ضاحكا (محمد فريد وجدي، د.ت)

وتفكه بالشئ تمتع به، ورجل فكه منبسط النفس، غير مكترث بشئ (محمد علي الصابوني، 1977).

وفي هذا ابلغ الدلالات على أن الضحك هو الظاهرة التي تريح الإنسان من كل المتاعب والآلام والأحزان، فالجنة التي هي النعيم المقيم والسعادة الدائمة وهى قمة التخلص من كل متاعب الدنيا فهي المكان الموعود بأن يتخلص فيه الإنسان من كل أوجه الألم والعذاب والقلق وهي الراحة الممتعة نرى أصحابها من المؤمنين في شغل بما فيه من النعيم بالتلذذ بالفكاهة والضحك والانشراح.

وفى سورة "الدخان":

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ(24) كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ عُيُونٍ(25) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (27) الدخان

وهنا حديث عن فرعون وجنوده، حينما أمر الله موسي عليه السلام بأن يضرب البحر بعصاه وفرعون يطارده بجنوده، ثم يأمر الله موسى بأن يترك البحر ساكنا منفرجا كما هو ليبتلع فرعون وجنوده، تاركين وراءهم الجنات، والعيون، والزروع، والمقام الكريم (مجالس

الأنس، والنازل الحسنة) ونعمة العيش (محمد علي الصابوني، 1977)، وكلها مبعث للتطارف والتفكه، أي أن هناك ارتباط وثيق بين الراحة المادية والنفسية والتفكه الباعث على الضحك.

وفى سورة "الطور":

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ(17) فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ(18) الطور

والحديث هنا مثل ما سبق أن أسلفناه عن ذكر الفاكهيين فى سورة "يس" عن تمتع أهل الجنة، إلا أن في قوله جل وتعالى إضافة جديدة عن دوافع السعادة والأنس والتفكه والضحك، وهو دافع الاطمئنان بوقاية الله للمؤمنين من عذاب الجحيم.

وفي سورة "الواقعة":

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (64) لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ(65) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ(66) الواقعة

يدلل الله على قدراته للكفار، فيقول – عز من قال – اخبروني عن البذر الذي تلقونه فى الطين، انتم الذين تنبتونه وتنشئونه حتي يكون فيه السنبل والحب أم نحن الفاعلون لذلك؟ ويخاطبهم جل وتعالي بمشيئته، لو أردنا لجعلنا هذا الزرع هشيما متكسرا لا ينتفع به فى طعام أو غيره، فتظلون تتفجعون وتحزنون حتى أنكم تتندرون علي خيبتكم وتقولون إنا لمغرمون: خاسرون أو معذبون. وهنا التندر بالمآسي "وشر البلية ما يُضحك".

وفي سورة "المطففين":

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُون(29) وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُون(30) وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِين (31) المطففين.

وقد سيق أن عرضنا لها فى مادة الضحك: وهي سخرية واستهزاء إجرامي من الكفار بالمؤمنين، تمثل في ضحكهم واستهزائهم وتغامزهم، وتفكههم فى منتدياتهم مع أهلهم بما يفعلون مع المؤمنين.

وفى رأي طريف أن في القرآن توضيح للضحك من حيث أسبابه وأهدافه في أنواع مختلفة كما يلي:

- **ضحك السفاهة:** وهو ما يكون سببه يتنافى والأخلاق الرفيعة. إما للسخرية من الآخرين والاستهزاء بهم قوله تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون) (المطففين:29).
- **ضحك النباهة:** وهو ضحك الكبار حيث يعبرون عن الإعجاب أو المدح, أو الثناء لمن هو دونهم بالمكان أو المكانة, ومن ذلك قوله (.. قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها) (النمل:19).
- **ضحك النقاهة:** عندما يضحك الإنسان فرحا بنجاته من خطر داهم, أو سباق كبير ونحو ذلك. مثل قوله تعالى (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) (عبس: 39).
- **ضحك التفاهة:** عندما يكون سخرية من ذي عامة أو سقطة أو خطأ أو خطيئة, أو سذاجة تفكير. كقوله تعالى (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات) (التوبة:79).
- **ضحك الكراهة:** ضحك يبعثه الحقد الشديد والكراهة المستحكمة والعداء المحض وحب الانتقام, ويدل على نية خبيثة ملوثة بالعنصرية والطائفية.. يقول تعالى (إن الذين أجرموا كانوا من الذين امنوا يضحكون) (المطففين:29).
- **ضحك الولاهة:** وهو الضحك في وجه في من تحب من ضيف او صديق أو نحو ذلك، كما قال تعالى (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب) (هود: 71).
- **ضحك الوجاهة:** وهو الذي يعبر عن الفوز والترفع عن المهاجمين والناقدين والمتطاولين والسفهاء وهو سمت الوجهاء الذين تدعوهم وجاهتهم إلى كظم الغيظ، قال تعالى (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) (آل عمران:134).

الضحك فى الحديث والسنة المحمدية المشرفة

النبي (صلى الله عليه وسلم) بشر كباقي البشر يتأثر بالمواقف التي تستوجب الضحك والفرح ويتفاعل معها، ويضحك لها. لقد كان ضحكه تربية وتوجيهاً، ودعوة ومداعبة، ومواساة وتأليفاً، وكان من هديه (صلى الله عليه وسلم) ألا يُكثر الإنسان من الضحك، ولا يبالغ فيه، فقد قال (صلى الله عليه وسلم): (يا أبا هريرة: أقل الضحك، فإن كثرة الضحك تميت القلب) رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

وقوله (صلى الله عليه وسلم): "لا تكثر من الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب" فالحديث واضح الدلالة علي أن المنهي عنه ليس مجرد الضحك، بل كثرته، وكل شيء خرج عن حده انقلب إلي ضده.

وكان من الثابت أن ضحك الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يخرجه عن وقاره وهيبته وعظمته وأدبه وقد وردت أحاديث عدة بذلك: ففي حديث جابر بن سمرة: "كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طويل الصمت قليل الضحك".

ووصفت السيدة عائشة ملامح ضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت رضي الله عنها: "ما رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مستجمعاً أي مبالغا في الضحك قط حتى أرى منه لهواته أي اللحمة التي بأعلى الحنجرة من أقصى الفم إنما كان يتبسم".

وقال جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه: ما رآني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا تبسم في وجهي. وفي رواية: إلا ضحك.

وفي حديث عبد الله بن الحارث الزبيري قال: ما رأيت أحدا أكثر تبسماً من رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وفي رواية عنه: ما كان ضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا تبسما.

والواضح أن جل ضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) كان التبسم، وربما زاد على ذلك حتى تبدو نواجذه، أي أضراسه فكان ضحكه صلى الله عليه وسلم فيه وقار ولا يصدر عنه صوت أو قهقهة ونحو ذلك.

فعن جابر بن سمرة قال: "كان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يضحك الا تبسماً".

ووردت أحاديث تبين ملامح وقسمات ضحك النبي (صلى الله عليه وسلم)، فعن عمر رضي الله عنه قال: "ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أحسن الناس ثغراً".

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: لقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضحك حتى بدت نواجذه.

والناظر إلى جملة الأحاديث التي وردت في صفة ضحك النبي (صلى الله عليه وسلم)، يجد أن معظم ضحكه (صلى الله عليه وسلم) كان التبسم، وفي بعض الأحوال ربما ضحك حتى بدت نواجذه.

ويذكر أن المصطفى عليه الصلاة والسلام كان دائم التبسم، وأحسن الناس ثغراً وأطيبهم نفسا وكان (صلى الله عليه وسلم) في بيته من أكثر الناس تبسما، كما كان يبتسم عندما ينشد الصحابة الشعر ويتضاحكون.

فعن جابر بن سمره رضي الله عنه سئل: "أكنت تجالس رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟ قال: نعم، كان طويل الصمت، وكان أصحابه يتناشدون الأشعار، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية، فيضحكون ويبتسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا ضحكوا".

وسئلت السيدة عائشة رضي الله عنها، كيف كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا خلا في بيته، فقالت: "كان ألين الناس وأكرم الناس، وكان رجلا من رجالكم إلا أنه كان ضحاكا بساما".

ولم تقتصر بشاشه النبي (صلى الله عليه وسلم) وضحكه وفرحه مع أصحابه فقط، بل كان لأعدائه جزء منها، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) طلق الوجه بشوشا حتى مع من لا يحبه، وكان إذا قابله واحد من أعدائه تبسم في وجهه.

وقد جاء رسول قيصر الروم يحمل رسالته إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، فلما أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) عرض عليه رسول الله الإسلام، فأبى أن يسلم، وقال إنني أقبلت من قبل قوم وأنا فيهم على دين، ولست مستبدلا بدينهم حتى أرجع إليهم. فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو تبسم، وقرأ قول الله تعالى: "إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" (القصص 56).

لقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم بالبِشْر والابتسام، حتى في لحظات الغضب، حتى إنه كان يبتسم ابتسامة المغضب، وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يضحك ويبتسم حتى

تبدو نواجذه، ولكن ضحكه كان من غير قهقهة، وكان (صلى الله عليه وسلم) يبتسم مع أصحابه ويلاطفهم ويستجيب لطرائفهم، والسيرة النبوية مشحونة بالكثير من المواقف والأحداث التي تؤكد ذلك، ومن أقواله (صلى الله عليه وسلم) فى الابتسامة والضحك:

- إن الله يُبغض المُعبس في وجوه إخوانه.
- تبَسُمك في وجه أخيك صدقة. (روى عن أبى هريرة أنهم قالوا: يا رسول الله أنك تداعبنا، فقال: إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقا).
- لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق. (رواه الحاكم والبيهقى).
- إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منك بسط الوجه وحسن الخلق.
- روحوا عن القلوب ساعة فساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت. وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما حجبني النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولا رآني إلا تبسم في وجهى (رواه البخارى).

ولقد صح عن عائشة رضي الله عنها في وصفها للنبي (صلى الله عليه وسلم) "أنه كان بساماً" أي يكثر التبسم.

- وقال المصطفى (صلى الله عليه وسلم): (إني لأمزح ولا أقول إلا حقا)

وكان (صلى الله عليه وسلم) يهشّ للدعابة، ويضحك للطرفة، ويتفاعل مع أصحابه في مجريات أمورهم وأحاديثهم، ومواقف ضحكه (صلى الله عليه وسلم) متعددة متنوعة:

فمن أمثلة ضحكه على الطرفة أو المواقف التي تبعث علي الضحك:

- عن ابن عباس أن رجلا ظاهر[1] من امرأته فغشيها قبل أن يكفر فأتى النبي (صلى الله عليه وسلم) فذكر ذلك له فقال: "ما حملك على ذلك" قال: يا رسول الله رأيت بياض حجليها[2] في القمر فلم أملك نفسي أن وقعت عليها، فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأمره ألا يقربها حتى يكفر. رواه ابن ماجة وحسنه الألباني.
- عن أم المؤمنين عائشة في رواية "أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لها يوما : ما هذا قالت: بناتي قال: ما هذا الذي في وسطهن قالت: فرس قال: ما هذا الذي عليه

([1]) الظهار: أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي، فإذا قال ذلك، فإنه لا يجوز له أن يمس امرأة حتى يكفر، وكفارة الظهار: عتق رقبة مؤمنة فإن لم يجد صام شهرين متتابعين فإن لم يستطع أطعم ستين مسكيناً.

([2]) حجليها: خلخاليها (ومفردهما خلخال)

قالت: جناحان قال: فرس لها جناحان قالت أو ما سمعت أنه كان لسليمان بن داود خيل لها أجنحة فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى بدت نواجذه (أخرجه أبو داود) وهو في آداب الزفاف للألباني.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يوما يحدث وعنده رجل من أهل البادية: (أن رجلا من أهل الجنة استأذن ربه في الزرع فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى ولكني أحب أن أزرع قال فبذر فبادر الطرف نباته واستوائه واستحصاده، فكان أمثال الجبال، فيقول الله: دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء) فقال: الأعرابي والله لا تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع وأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) .
- عن عكرمة قال: كان بن رواحة مضطجعا إلى جنب امرأته فقام إلى جارية له في ناحية الحجرة فوقع عليها وفزعت امرأته فلم تجده في مضجعه فقامت وخرجت فرأته على جاريته فرجعت إلى البيت فأخذت الشفرة ثم خرجت وفرغ فقام فلقيها تحمل الشفرة فقال مهيم فقالت مهيم لو أدركتك حيث رأيتك لوجأت بين كتفيك بهذه الشفرة قال وأين رأيتني قالت رأيتك على الجارية فقال: "ما رأيتني وقد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يقرأ أحدنا القرآن وهو جنب"

قالت: فاقرأ. فقال:

أتانا رسول الله يتلو كتابه كما لاح مشهور من الفجر ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فقالت: "آمنت بالله وكذبت البصر" ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فضحك (صلى الله عليه وسلم) حتى رأيت نواجذه. (رواه الدارقطني).

- أصبح النبي (صلى الله عليه وسلم) يوما ما وقد تغير وجهه فقال بعض أصحابه: "لأضحكنه". فقال الصحابي لرسول الله: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، بلغني أن الدجال يخرج والناس جياع فيدعوهم إلى طعام، أفترى – إن أدركته – أن أضرب في ثريدته (آكل بنهم من طعامه)، حتى إذا تضلعت (شبعت) آمنت بالله وكفرت به؟ أم أتنزه عن طعامه؟. فضحك صلوات الله وسلامه عليه، وكان ضحكه التبسم وقال: "بل يغنيك الله يومئذ بما يغنى به المؤمنين".

- **وعن أبي هريرة قال: "دخل أعرابي المسجد ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالس فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد ولا تغفر لأحد معنا فضحك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال: لقد احتظرت واسعا[3].**
- **ومن نوادر إطلاق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الطرفة أن أتت عجوز إليه (صلى الله عليه وسلم) فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة فداعبها (صلى الله عليه وسلم) قائلاً: إن الجنة لا تدخلها عجوز، فولت تبكي، فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) للحاضرين: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول فقال: يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز قال فقال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز إن الله تعالى يقول: {إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء (35) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (36)عُرُبًا أَتْرَابًا(37) (الواقعة) "أي أنها حين تدخل الجنة سيعيد الله إليها شبابها وجمالها." رواه الترمذى.**
- **عن أنس رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) وطلب منه دابة يسافر عليها قائلا: يا رسول الله، احملني، فأراد النبي أن يمازح الرجل فقال له: (صلى الله عليه وسلم): إنا حاملوك على ولد ناقة، استغرب الرجل كيف يعطيه النبي (صلى الله عليه وسلم) ولد الناقة ليركب عليه، فولد الناقة صغير ولا يتحمل مشقة الحمل والسفر، وإنما يتحمل هذه المشقة النوق الكبيرة فقط، فقال الرجل متعجباً: وما أصنع بولد الناقة؟ وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يقصد أنه سيعطيه ناقة كبيرة، فداعبه النبي قائلاً: (وهل تلد الإبل إلا النوق)، سنن أبي داود.**
- **عن عائشة رضي الله عنها أن رفاعة القرظي طلق امرأته فبت طلاقها فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير فجاءت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت يا رسول الله إنها كانت عند رفاعة فطلقها آخر ثلاث طلقات فتزوجها بعده عبد الرحمن بن الزبير وإنه والله ما معه يا رسول الله إلا مثل هذه الهدبة (لهدبة أخذتها من جلبابها) قال وأبو بكر جالس عند النبي (صلى الله عليه وسلم) وابن سعيد بن العاص جالس بباب الحجرة ليؤذن له فطفق خالد ينادي أبا بكر يا أبا بكر ألا تزجر هذه عما تجهر به عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما يزيد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على التبسم ثم قال لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك.**

([3]) لقد احتظرت: أي منعت واسعا أي دعوت بمنع من لا منع فيه من رحمة الله.

- وقال زيد بن أسلم: إن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) فقالت: إن زوجي يدعوك، قال: "ومن هو؟ أهو الذي بعينه بياض"؟ قالت: والله ما بعينه بياض فقال: "بلي إن بعينه بياضا" فقالت: لا والله، فقال (صلى الله عليه وسلم): "ما من أحد إلا بعينه بياض" (أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح، ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف، كما ذكر العراقي في تخريج الإحياء). وأراد به البياض المحيط بالحدقة.
- ومن ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دخل علي أحد أصحابه (نعمان بن عمرو بن رفاعة) وهو أرمد فوجده وهو يأكل تمرا، فقال له أتأكل تمرا وأنت أرمد؟ فقال: إنما آكل من الجانب الآخر. فضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى بدت نواجده.

والنعيمان بن عمر الأنصاري رضي الله عنه، من المعروفين بروح المرح والفكاهة والميل إلي الضحك والمزاح، وقد رويت عنه في ذلك نوادر عجيبة وغريبة.

وقد ذكروا أنه كان ممن شهد العقبة الأخيرة، وشهد بدرًا وأُحدًا، والخندق، والمشاهد كلها، روي عنه الزبير بن بكار عددًا من النوادر الطريفة في كتاب "الفكاهة والمرح" نذكر بعضًا منها:

- قال: وكان لا يدخل المدينة ويجد طرفة إلا اشتري منها، ثم جاء بها إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) فيقول: ها أهديته لك، فإذا جاء صاحبها يطلب نعيمان بثمنها، أحضره إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) قائلا: أعط هذا ثمن متاعه، فيقول: "أو لم تهده لي"؟ فيقول: إنه والله لم يكن عندي ثمنه، ولقد أحببت أن تأكله، فيضحك الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ويأمر لصاحبه بثمنه.
- وأخرج الزبير قصة أخري من طريق ربيعة بن عثمان قال: دخل أعرابي علي النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأناخ ناقته بفنائه، فقال بعض الصحابة للنعيمان الأنصاري: لو عقرتها فأكلناها، فإنا قد قرمنا إلي اللحم؟ ففعل، فخرج الأعرابي وصاح: واعقراه يا محمد! فخرج النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: "من فعل هذا"؟ فقالوا: النعيمان، فأتبعه يسأل عنه حتي وجده قد دخل دار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب، واستخفي تحت سرب لها فوقه جريد، فأشار رجل إلي النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث هو فأخرجه فقال له: "ما حملك علي ما صنعت"؟ قال: الذين دلوك علي يا رسول

الله هم الذين أمروني بذلك قال: فجعل يمسح التراب عن وجهه ويضحك، ثم غرمها للأعرابي.

- وروي عن أم سلمة قالت: خرج أبو بكر الصديق –رضي الله عنه– في تجارة إلي بصري قبل موت النبي (صلى الله عليه وسلم) بعام، ومعه نعيمان وسويبط بن حرملة، وكانا قد شهدا بدرًا، وكان نعيمان علي الزاد، فقال له سويبط، وكان رجلاً مزاحًا، أطعمني فقال: لا حتي يجيء أبو بكر رضي الله عنه، فقال: أما والله لأغيظنك، فمروا بقوم فقال لهم سويبط: تشترون مني عبدًا؟ قالوا: نعم، قال: إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: إني حر، فإن كنتم إذا قال لكم هذه المقالة تركتموه، فلا تفسدوا علي عبدي، قالوا: بل نشتريه منك، قال: فاشتروه منه بعشر قلائص، قال: فجاءوا فوضعوا في عنقه عمامة أو حبلاً، فقال نعيمان: إن هذا يستهزئ بكم، وإني حر، لست بعبد، قالوا: قد أخبرنا خبرك فانطلقوا به، فجاء أبو بكر رضي الله عنه، فأخبره سويبط فأتبعهم، فرد عليهم القلائص، وأخذه، فلما قدموا علي النبي (صلى الله عليه وسلم) أخبروه قال: فضحك النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه منها حولاً أخرجه ابن أبي شيبة وابن ماجة. وأخرجه أبو داود الطيالسي والروياني فجعلا المازح هو النعيمان والمبتاع سويباطًا، كما في ترجمته في "الإصابة".
- ومن مداعبات وطرف الرسول (صلى الله عليه وسلم):

يفاجئ صلوات الله وسلامه عليه "زاهر الأشجعى" بأن يحتضنه من الخلف، ويرفعه بعض الشئ بقوة عن الأرض، فيصيح "زاهر" بغضب: من هذا؟ أرسلني (أي اتركني). ويلتفت زاهر فيجد أن الذي يحتضنه مبتسما هو الرسول (صلى الله عليه وسلم). فيسعد ويسر، ويسمع "زاهر" الرسول صلوات الله وسلامه عليه كمن يعرض بضاعة للبيع وهو ما زال يرفعه بين يديه يقول: من يشترى هذا العبد؟! من يشترى هذا العبد؟! فيقول "زاهر" والسعادة تملأ قلبه لوجوده بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولمداعبة الرسول (صلى الله عليه وسلم) له: يا رسول الله والله تجدني كاسداً.. (أي أنك لن تجد مشتريا يشتريني) فيقول النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يبتسم فى وجه زاهر وقد أطلقه وقبله: "لكنك عند الله لست بكاسد".

الضحك فى النصوص الدينية الأخرى

لاحظ الفيلسوف الإنجليزي "هويتهد" خلو التوراة من كل روح فكاهية، ورجح أن يكون السبب في ذلك أن شعب إسرائيل كان شعبًا مضطهدًا معذبًا فكان هبوطه النفسي من عوامل انصرافه عن الضحك، ولكن يضعف هذا السبب إذا وجدنا المسيحية تنتفي منها الروح الفكاهية أيضا! فلم يذكر المسيح أنه ضحك يوما، في حين نص الإنجيل على بكائه ثلاث مرات!.

وإذا كان القديس بولس قد أوصى المسيحيين في إحدى رسائله بأن يفرحوا في كل حين، إلا أنه نفسه – كما قال "رينان" – لم يكن يعرف حتى لغة الابتسام!.

وتنتشر الآراء المسيحية التي تعد الضحك رجسًا من عمل الشيطان، كما كان يقول الكاتب الكاثوليكي "لامنيه".

وحرصت فى هذا الإطار أن يستجلى الأمر من أصحابه، وان "اترك الخبز لخبازه" وأقدم في هذا الجزء الصديق العزيز "الأب مرقس" كاهن كنيسة السيدة العذراء بأسوان تصنيف ذكر الضحك في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد كما في الصفحات التالية.

الضحك فى الكتاب المقدس[4]

أولا: الضحك بمعنى الشك وعدم التصديق:

"فضحكت سارة في باطنها قائلة أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ"[5] ضحكت سارة في باطنها – أي في نفسها – لأن الله أخبرها انه سيكون لها ابن – وقد تقدمت في السن – ومن ثم قالت: ابعد فنائي – اى بعد شيخوختي – يكون لي تنعم – أي أولاد – وسيدي قد شاخ فقد تقدم إبراهيم في العمر مما جعل سارة تضحك شكاً في كلام الله لذلك راجع الرب إبراهيم في (عدد 13) قائلا: لماذا ضحكت سارة... أي لماذا شكت في كلامي، هل يستحيل على الرب شئ؟ هل يصعب عليه أمر؟ إن غير المستطاع لدى الناس مستطاع عند الله، واستدركت سارة في (عدد 15) قائلة: لم أضحك، اى أنكرت الضحك رغبة في نفي شكها في صدق الله.

***

([4]) هذا الجزء وضعه الأب "مرقس" كاهن كنيسة السيدة العذراء بأسوان وحرص الكاتب ان يدرجه كما كتب تماما.

([5]) تك: (18:12). تك: سفر التكوين.

"ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمرين والجمع يضجون. قال لهم تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه. فلما اخرج الجمع دخل وامسك بيدها فقامت الصبية" [6]

***

"فجاء إلى بيت الرئيس ورأى ضجيجا. يبكون ويولون كثيرا. فدخل وقال لهم لماذا تضجون وتبكون. لم تمت الصبية لكنها نائمة. فضحكوا عليه. أما هو فأخرج الجميع وأخذ أبا الصبية وأمها والذين معه ودخل حيث كانت الصبية مضطجعة. وامسك بيد الصبية فمشت. إنها كانت ابنة اثنتي عشرة سنة. فبهتوا بهتا عظيما".[7]

***

"وكان الجميع يبكون عليها ويلطمون. فقال لا تبكوا. لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه عارفين أنها ماتت. فأخرج الجميع خارجا وامسك بيدها ونادي قائلا: يا صبية قومي. فرجعت روحها وقامت في الحال. فأمر أن تعطى لتأكل"[8]

ويجئ الضحك في موضعه الطبيعي.. فالقوم موقنون بأن الصبية قد فارقت الحياة... ومعروف عنهم القدرة الفائقة على التطبيب وأمام ثقتهم بإستنتاجاهم هذا يضحكون من قول السيد المسيح عليه السلام بأن الصبية لم تمت ومازالت على قيد الحياة. خاصة أنهم لا يعرفون قدراته المعجزة الخارقة في شفاء المرضى وإحياء الموتى...

وهنا يزداد الضحك فالسيد المسيح عليه السلام يتكلم بجدية تتناسب وثقته في منحة الرب له. وتزداد منطقية هذا الموضوع للضحك حيث أن القوم في حالة شديدة من الحزن والبكاء والولولة ثم يجئ القول "بأن الفتاة نائمة ولم تقضى بعد" وهو خبر نقيض لكل ما يجيش بالنفوس وغير متوقع وهنا لا يغنى أي تصرف عن الضحك حتى الابتسام... والضحك فقط هو الشئ الطبيعي الذي يبدر من هؤلاء القوم... كما أن هذا الضحك أو جانب منه قد يجئ معبرا عن سخرية القوم من القول الذي ينافي الواقع الذي يحسونه والذي يعبر عن الموت الذي يستحيل أن يصدق عنه بديل آخر.

([6]) متي 9 (25:23). متى: إنجيل متى.

([7]) مر 5 (38: 42). مر: إنجيل مرقص.

([8]) لو8 (3 :5). لو: إنجيل لوقا.

ثانيا: الضحك بمعنى السخرية أو الاستهزاء:

"وأما الآن فقد ضحك على أصاغري أياما الذين كنت استنكف من أن اجعل آباءهم من كلاب غنمي"[9].

هنا يتحسر أيوب على ما كان عليه سابقا من مجد وكرامة ورخاء وبدأ يرثي لحاضره فيقول "فقد ضحك على أصاغري أياما – اى استهزأ بى أدناهم وأحقرهم – أولئك الذين كنت استنكف أن اجعل آبائهم مع كلاب غنمي.. فضحكهم هنا ضحك السخرية والاستهزاء من أيوب.

****

"العز والبهاء لباسا وتضحك على الزمن الآتي"[10]

هذا المثل قيل عن المرأة الفاضلة التي تكتسي ببهاء فضائلها وعز طهارتها لذلك فهي تضحك سخرية واستهزاءا بالأيام القادمة في المستقبل لأنها بصفاتها الحميمة لا تخاف ما يكتنف هذه الأيام من غموض.

"صرت ضحكة لكل شعبي وأغنية لهم اليوم كله"[11]

بمعنى أنني صرت سخرية "أضحوكة" لكل بني جنسي فلا يجدون ما يسخرون ويستهزئون به سواي اليوم كله.

"قد أقنعتني يا رب فاقتنعت وألححت علي فغلبت صرت للضحك كل النهار كل واحد استهزأ بى"[12]

إن ارميا هنا يقول لقد ألححت علي يا ربي حتى غلبتني وأقنعتني... لذلك صرت سخرية طوال النهار لكل راغب في الضحك والاستهزاء .

"الساكن فى السموات يضحك: الرب يستهزئ بهم"[13]

ان الله الساكن فى السموات يسخر بهؤلاء الأشرار ويستهزئ بتدبيرهم وضحالة فكرهم وهم يظنون فى أنفسهم القدرة عليه.

****

([9]) أى: (3:1). أى: سفر أيوب.
([10]) أم : (31:25) أم : سفر الأمثال.
([11]) مرا: (3–14) مرا: سفر المراثي.
([12]) أر (20:7) أر : سفر أرميا.
([13]) مز (23 : 32) مز : سفر المزامير.

"هكذا قال السيد الرب إنك تشربين كأس أختك العتيقة الكبيرة، تكونين للضحك والاستهزاء تسع كثيرا"[14]

والحديث هنا عن أورشليم التي حادت عن طريق الله لذلك يقول لها السيد الرب إنك تشربي كأس أختك التي هي "السامرة" كأس الآلام والسبي والتشريد وتصبحين هفا لسخرية واستهزاء جميع الأمم "تكونين للضحك والاستهزاء"

***

"فيري الصد يقون ويخافون وعليه يضحكون"[15]

هذا كلام النبي داود يوجهه للشرير المتمادي في شره هذا الذي سيستأصله الله من أرض الأحياء وينقض خيمته مما يخيف الصديقين من الله وفي ذات الوقت يضحكون على الشرير.

***

"أما أنت فتضحك بهم تستهزئ بجميع الأمم"[16]

أيضا يخاطب هنا داود الله ذاته قائلا: أما أنت يا رب ففي قدرتك أن تسخر بهم بل وتستهزئ بجميع الأمم إن أردت ذلك".

***

"فكان السعاة يعبرون من مدينة إلى مدينة في أرض "إفرايم ومنسي" حتى "زوبولون" فكانوا يضحكون عليهم ويهزأ ون بهم"[17]

السعاة هؤلاء هم الذين أرسلهم الرب لتوبيخ الشعب على خطيتهم وعلى شرهم لكي يرجعوا إلى الرب فيرجع الرب إليهم... لكن السعاة لم يجدوا آذانا صاغية بل لم يجدوا من الشعب سوى السخرية والضحك والاستهزاء

([14]) مز (23 : 32).

([15]) مز (52:6).

([16]) مز (59:8).

([17]) أى (30:10) أي : سفر ايوب.

وذكر أيضا بمعنى السخرية في الآتي:

"أسكروه لأنه تعاظم على الرب فيتمرغ "موآب" في قبائه وهو أيضا يكون ضحكة أفما كان إسرائيل ضحكة لك. هل وجد بين اللصوص حتى انك كلما كنت تتكلم به كنت تنغض الرأس"[18]

***

"على كل سطوح "موآب" وفي شوارعها كلها نوح لأني قد حطمت "موآب" "كإناء لا مسرة يقول الرب. يولولون قائلين كيف نقضت كيف نقضت كيف حولت "موآب" قفاها يخزي فقد صارت "موآب" ضحكة ورعبا لكل من حاوليها"[19]

***

"ادخل في كليتي نيبال جعبته. صوت ضحكة لكل شعبي وأغنية لهم اليوم كله"[20]

***

ثالثا: الضحك بمعنى الحرية (اللامبالاة):

"من سرح الفراء حرا، ومن فك ربط حمار الوحش، الذي جعلت البرية بيته والسياح مسكنه يضحك على جمهور القرية لا يسمع زجر السائق"[21]

هذه العبارة عتاب ألهي لأيوب بعد أن استشرى المرض في بدنه فيعضده الله قائلا له "من الذي أطلق الوحش حرا ولم يجعل عليه سلطانا من أحد حتى وصل في حريته إلى أن يضحك على جمهور القرية فلا سائق يزجره ويحد من لامبالاته...؟ والإجابة على هذا التساؤل واضحة فان الذي فعل ذلك هو الله ولأفضل في ذلك إلا الله وحده"

"ها أنت تعطي الفرس قوته وتكسو عنقه عرفا. أتوثبه كجراده. نفخ منخره مرعب. يبحث في الوادي وينفر ببأس يخرج للقاء الأسلحة. يضحك على الخوف ولا يرتاع ولا يرجع عن السيف"[22]

يجئ الضحك هنا – تقريبا – بنفس المعنى السابق فالفرس لا يبالي ولا يرتاع من السيف.

([18]) أر 48 (26 – 27) أر : سفر ارميا.

([19]) أر 48 (38–39) ار: سفر ارميا.

([20]) مرا 3 (13: 14) مرا: سفر المراثى.

([21]) أي 39 (5–8) أي: سفر ايوب.

([22]) أي 39)19–22).

"لا يستفزه نبل القوس، حجارة المقلاع ترجع عنه كالقش يحسب المقمعة كقش ويضحك على اهتزاز الرم"[23]

والكلام هنا عن حيوان يدعى "لوباثان" هذا الحيوان الذي قال عنه التفسير إنه التمساح الذي لا يؤثر فيه القوس ولا يهاب حجارة المقلاع التي ترتد عنه كالهشيم والقش حتى انه يسخر من اهتزاز الرمح، فالرمح الذي يخيف البشر وجميع الكائنات حينما تهتز أوتاره استعداد للرمي يهزأ التمساح به "يضحك لاهتزاز الرمح" غير عابئ به مستهزئا به وساخرا منه لا مباليا بخطره.

***

رابعا: الضحك بمعنى البهجة والسرور:

"لذلك لما ولدت وهي في سن الكبر قالت: قد صنع الله لي ضحكا"[24]

أي أن كل من يستمع لهذا الخبر يسر لي ويفرح لأن سارة ترضع ابنا.

"هو ذا الله لا يرفض الكامل ولا يأخذ بيد فاعلي الشر عندما يملأ فاك ضحكا وشفتيك هتافا يلبس مبغوضك خزيا أما خيمة الأشرار فلا تكون"[25]

المتحدث هنا "بلدر الشوحي" أحد أصدقاء ايوب حين ظهر أمامه ايوب وكان الله يرفضه فأراد أن يضع أمام ايوب الحياة والموت والبركة واللعنة فيقول "هو ذا الله لا يرفض الكامل ولا لا يأخذ بيد فاعلي الشر" وأن بدا ذلك لغير المؤمنين به فهو قادر أن يحول نوح أيوب إلي فرح ويفيض عليه بالتعريفات السماوية حتى يمتلئ فمه ضحكا أي بهجة وسرورا في الوقت الذي يلبس فيه مبغوض الخزي.

"عندما رد الرب سبى صهيون صرنا مثل الحالمين حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكا وألسنتنا ترنما حينئذ قالوا بين الأمم أن الرب قد عظم العمل مع هؤلاء"[26]

أي انه عندما ارجع الله شعب إسرائيل من أسره وعتقه من عبوديته صار الشعب في فرح وبهجة فلقد امتلأت أفواههم ضحكا من الفرح واهتزت ألسنتهم بترانيم البهجة والسرور... وهو فرح الحرية وبهجة الرجوع من السبي.

([23]) اى 41 (28–29) أي: سفر ايوب.

([24]) تك (21:6) تك: سفر التكوين.

([25]) أى 8 (20–22) أي: سفر ايوب.

([26]) مز 126 (1– 2) مز: سفر المزامير.

"طوبا لكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون. طوبا لكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون"[27]

هنا بشرى بالسعادة هؤلاء الجياع يشبعون وليس الجياع للخبز وإنما الجياع إلى المجد السماوي والحياة النقية وسيشبعون من ذلك حينما ينطلقون من الجسد إلى السماء.

***

خامسا: الضحك بمعنى الشماتة:

"لأني دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي فانا أضحك عند بليتكم أشمت عند مجئ خوفكم"[28]

يريد الله أن يقول للأشرار الذين رفضوا كل خير وكل ود الهي سوف يضحك شماتة في مصيبتكم ثم يردف موضحا أشمت عند مجئ ما يخيفكم.

"قد ذكرت أورشليم في أيام مذلتها وتطوحها كل مشتهياتها التي كانت في أيام القدم عند سقوط شعبها بيد العدو وليس من يساعدها رأتها الأعداء ضحكوا على هلاكها"[29]

المقصود بأورشليم شعب إسرائيل من باب تغليب الجزء على الكل حينما سقطت في أيدي أعدائها لم تجد من يعضدها ويأخذ بيدها ويساعدها حتى أن هؤلاء الأعداء شمتوا بها وفرحوا وسروا لهلاكها.

"الشرير يتفكر ضد الصديق ويحزن عليه أسنانه الرب يضحك به لأنه رأى أن يومه آت"[30]

دائما وأبدا يسعى الشرير وراء البار والصديق ويحيك له المؤامرات لكن الله يحبط مؤامرات الأشرار بل ويشمت بالشرير الذي لم يرجع عن شره.

***

سادسا: الضحك بمعنى الغبن والجهل والغفلة:

"بركة الرب هي تغني ولا يزيد معها تعبا مثل الرزيلة عند الجاهل كالضحك أما الحكمة فلذي فهم"[31]

([27]) لو (6 :21) لو: إنجيل لوقا.

([28]) أم (1: 24–25) أم : سفر الأمثال.

([29]) مز (1: 7) مز: سفر المزامير.

([30]) مز 37 (12–13) مز: سفر المزامير.

([31]) ام 10 (22–23) أم : سفر الأمثال.

إن الحكيم سليمان: يعني بهذا أن فعل الرزيلة عند الجاهل سهل كالضحك فهو لا يحس بأبعادها ولا يعرف عواقبها.

"جناح النعامة يرفرف أفهو منكب رؤوف أم ريش لأنها تترك بيضها تحميه في التراب، وتنسى أن الرجل تضغطه أو حيوان البر يدوسه، تقسو على أولادها كأنها ليست لها باطل تعبها بلا أسف لأن الله قد أنساها الحكمة ولم يقسم لها فهم، عندما تحوز نفسها إلى العلا تضحك الفرس وعلى راكبه"[32]

يقول الله لأيوب من خلال هذه الفقرة أن النعامة الرعناء التي لا يهمها ترك بيضها فى التراب غير عابئة بأن يعبث به أحد أو رجل تضغطه أو حيوانات البر تدوسه.. وبلا فهم ترتفع إلى العلا تسخر من الفرس وتضحك على راكبه في غبن وجهل به لأن الله قد أنساها الحكمة ولم يقسم لها الفهم.

***

سابعا: الضحك بمعنى الاستهتار:

"رجل حكيم إن حاكم رجلا أحمق فأن غضب ضحك فلا راحة"[33]

أي أن الجاهل مستهتر لا ينفع في توبيخه لا الغضب ولا الضحك فالجاهل من المعروف عنه الاستهتار.

"لأنه كصوت الشوك تحت القدر هكذا ضحك الجهال"[34]

أي كما يحترق الشوك تحت القدر فيعطي طقطقة ذات صوت عال بلا منفعة إلا لوقته.. فهكذا ضحك الجهال فيه من الاستهتار ما يجعله بلا فائدة ولا نفع رغم ما فيه من ارتفاع الصوت.. بل وقد يعود بالحرق على الضاحكين.

"للضحك يعملون وليمة والخمر تفوح العيش أما الفضة فتحصل للكل"[35]

هنا الكلام يعني به أن الحكام الذي لا يعرفون كيف يسوسون رعيتهم فهم يقيمون ولائمهم للاستهتار والضحك والفرح والخمر ويجمعون المال لكي يعيشوا بالظلم والرشوة.

([32]) أى 39 (3-8) اى : سفر ايوب.

([33]) أم (29 : 9) أم: سفر الأمثال.

([34]) جا (7:6) جا: سفر الجامعة.

([35]) جا (10 : 19).

"ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون.. ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون"[36]

يتوعد الله الذين شبعوا من الدنيويات دون النظر للأبديات، الذين شبعوا من الماديات دون تذكر الروحانيات لأنهم يجوعون في السماء إلى البر والمجد وأيضا أولئك الضاحكون استهتارا في فرح دنيوي سيحزنون ويبكون روحيا في السماء.

***

ثامنا: ضحك المفاجأة:

"وقال الله لإبراهيم "سارای" لا تدعو اسمها "سارای" بل اسمها "سارة". وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا أباركه فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون. فسقط إبراهيم على وجهه وقال في قلبه هل يولد لأبن مئة سنة وهل تلد سارة تسعين سنة"[37]

هناك ضحك المفاجأة حيث فوجئ إبراهيم بهذه البشرى الغير متوقعة إطلاقا فضحك حتى سقط على وجهه من فرط الضحك.

وعن الضحك ذاته يجيء في الكتاب المقدس:

أيضا في الضحك يكتئب القلب وعاقبه الفرح حزن"[38]

"الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب"[39]

وللأولى احتمالين للتفسير: الاحتمال الأول أن شدة السرور أحيانا تدفع للبكاء وشدة الحزن قد تولد الضحك. والاحتمال الثاني أن ضحك اللهو والتمرد قد يقود إلى عاقبة الألم والاكتئاب والحزن.

أما الثانية فهي دعوة للحزن بمعناه السطحي ولكن الحزن الذي يعني الوقار والتفكر تأملا في الحياة الأبدية حيث أن فيه تعزية أعظم وأحسن من الفرح المادي لأن الأول يؤدي إلى التوبة والثاني يمثل فرحا وقتيا لا ينفع الإنسان شيئا.

([36]) لو (6 : 25) لو: إنجيل لوقا.

([37]) تك 17 (15–17) تك: سفر التكوين.

([38]) أم (14: 13) ام: سفر الامثال.

([39]) جا (7:3) جا: سفر الجامعة.